

وكانت صَيَحْتُهُمْ في الحرب: لَبَّيْكَ أبا أيوب، فكأنما تُرَدِّدها وراءهم — حين يلفظونها — أوأذِيَّ البحرُ وصخور الجبل، وتنداحُ<sup>٦</sup> في سهول البادية صدى متصل الرنين، يُفَزَعُ وَيُرْهَبُ ويقطعُ علائق القلوب.

وكانوا يحملون في الحرب سيوفًا بلا أغماد، إذ كانوا لا يخرجون بها من المعركة إلا مُحَطَّمَةً من طول الضَّراب!

وجلس ثلاثتهم ذات ليلة من ليالي العُطلة في بعض مضارب الجُند يَسْمُرُونَ، كعادتهم كلما سكن غبارُ الحرب، وأخذوا في لونٍ من ألوان المفاخرة بما أُنُوا من أعمال البطولة في حرب الروم، فراحَ كُلُّ منهم يُحْصِي ما في جسده من آثار الجراح، لا يكادون يستقصونها إحصاءً وعدًّا، وبدا الأنطاكي أكثرهم آثارَ جراح، فقال ابن بخت مُعْجَبًا: الله ما أبليت يا أبا محمد في سبيل الله، إنك لبطل!

قال النعمان: إنه لأعلى منزلةً مما تَصِفُ يا أبا عُبيدة؛ إنه لبطل.<sup>٧</sup>

وضحك الثلاثة ضحكًا عريضًا، تردَّدت أصداؤه في مضارب الجُند، وصار اسمه من يومئذ: أبا محمد البطال،<sup>٨</sup> لا يكاد يعرفه أحدٌ إلا به.

وقال أبو محمد ولم يزل يَشْرُقُ بضحكته: لقد أذكرُ ثمانِي أمرًا حانت مناسبته، فقد كنت بأنطاكية ذات يوم من سنة ٧٠، وقد زحف الروم بجحافلهم يلتمسون غرَّة عبد الملك، حين اشتغاله بحرب ابن الزبير وتوقِّي مكاييد عمرو بن سعيد ومقاومة الخوارج،<sup>٩</sup> وبدا للروم كأنما دانت لهم أنطاكية وانفتح البَر، ولم يكن ثمة جيش للعرب يصدُّ غاراتهم، واستضعف المسلمون فأوى منهم من أوى إلى داره، وفرَّ من فرَّ إلى خارج المدينة، ورأيتني ذلك اليوم بغتةً بين كوكبة من جُند الروم، يسوقون في الحبال ثلاثة أسارى من العرب، وليس معي إلا سيفٌ مفلول، قد تحطَّم من كثرة الضَّراب، وهتف بي الأسارى في أغلالهم يطلبون النجدة: إلينا يا أبا العرب!

<sup>٥</sup> أمواج البحر.

<sup>٦</sup> تنداح: تعظم ويتسع صداها.

<sup>٧</sup> عظيم البطولة.

<sup>٨</sup> أبو محمد البطال: من أشهر أبطال ذلك العصر في حرب الروم، وله ذكر في التاريخ، وسيرة مستفيضة في بعض القصص الشعبي.

<sup>٩</sup> انظر الفصل الثاني وما بعده من هذه القصة.